مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على النبي الرسول أحمد ﷺ، الذي بشرت به الرسل، وصرحت باسمه الكتب، وصدقت بنبوته الآيات والمعجزات، وبعد.

فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يستمر إلى آخر الزمان، بقاء أمم ثلاث، هم أتباع الكتب السماوية الكبرى التي أنزلها الإله الحق ـ سبحانه ـ نوراً وهدىً للناس، فهدى بها من شاء هدايته، وأزاغ عنها من زاغوا وضلوا. وكان ممن زاغ عن الحق أقوام امتدت أيديهم لتحريف تلك الكتب التي استحفظهم الله إياها، فدخل التحريف أولاً في التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ، فلما ضلت أمة موسى بكثرة التحريف، أرسل ـ تعالى ـ عبده ونبيه عيسى ـ عليه السلام ـ وأنزل عليه الإنجيل فكان مصححاً ومكملاً لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ.

ثم امتدت يد التحريف مرة أخرى إلى الكتاب المنزل على عيسى ـ عليه السلام ـ فنالت منه بما لم تنل من التوراة نفسها، حتى ادعى المحرِّفون في عيسى ـ عليه السلام ـ أنه إله أو ابن إله.

وكان لا بد من تصحيح آخر يعيد البشرية إلى جادة الصواب؛ فأرسل الله محمداً ﷺ بكتاب معصوم خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم يكل حفظه لأحد، بل تولى حفظه بنفسه فقال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [**الحجر**: ٩]. واهتدت بهذا الكتاب المبين أمة جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

فلم يبق محفوظاً هادياً إلا القرآن العظيم الذي يزداد من تمسك به هداية واستقامة: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [**الزخرف**: ٤٣].

أما اليهود المحرِّفون للتوراة فهم يزدادون انحرافاً كلما تمسكوا بما حرفوه، وكذلك النصارىٰ المحرفون للإنجيل يزدادون ضلالاً كلما تشبثوا بما اخترعوه وألَّفوه.

ولما كان أصل الكتب السماوية ومصدرها واحداً، فقد وجد فيها ـ رغم التحريف ـ أوجه تشابه مع ما جاء به ديننا في أمور من الأخبار والشرائع، ذلك أن التحريف لم يستوعب الكتب السابقة كلها، ولكن بقيت في التوراة والإنجيل بقايا من الحق، ولهذا قال الرسول ﷺ: «إذا حدثتكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم»(١) والحق المتبقي في التوراة والإنجيل قسمان، قسم من الشرائع، وهذه قد نُسخت وألغي العمل بها بعد مجئ الشريعة الخاتمة، وقسم من الأخبار، وتلك نقيسها علىٰ ما عندنا من الحق، فما وافقه قبلناه علىٰ سبيل الاستئناس وما تلبس به من مبالغات وحكايات ليس في شرعنا ما يصدقه ولا ما يكذبه توقفنا عنه، وإن كان الإذن قد جاء بحكايته(٢) في قوله ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»(٣).

هذا.. وقد كان لتمسك أهل الكتابَيْن بموروثاتهم الباطلة، أكبر الأثر في تسيير دفة الأحداث علىٰ نحو مسئ في التاريخ، قبل الإسلام وبعده، حيث تصدوا بباطلهم الموروث لدعوات الحق، واشتدت مواجهتهم لأمة الإسلام خاصة، بدءاً من عهد الرسالة وحتىٰ عصرنا الذي نعيشه، بعد أن حسب الناس حيناً من الدهر أن اليهود والنصارىٰ قد تحولوا عن الدين إلىٰ اللادين بشكل نهائي، وكان شيوع المذاهب الإلحادية والانحلالية العلمانية قد أوهم هذا، ولكن العقود الأخيرة جاءت لتثبت عكس ذلك، إذ أنه ـ ولحكمة يعلمها الله ـ تزامنت

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٣٩)، والاعتصام (٢٥)، والتوحيد (٥١).
(٢) انظر مقدمة تفسير ابن كثير.
(٣) أخرجه الترمذي في العلم ٢٦٦٩، وأحمد في المسند (٦٤٤٢)، (٦٤٥٠)، والدارمي في المقدمة (٥٤٢).

يقظة الشعور الديني لدى أهل الكتابين - على المستوى الشعبي - مع بدايات الصحوة الإسلامية الأخيرة. ففي أواخر الستينيات الميلادية، وطيلة عقد السبعينيات، بدت مظاهر تلك العودة للدين، وكان لحرب الأيام الستة عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م أثر كبير في التحول نحو الدين لدى الجميع، فقد لُبِّس على اليهود فيها وظنوا أن استيلاءهم على القدس ووصولهم إلى حائط المعبد الكبير بعد تسعة عشر قرناً من الحرمان والتشرذم، هو إكرام لهم ودليل على أن رؤى أنبيائهم تتحقق لصالحهم، وكذلك انخدع النصارى الذين زرعوا اليهود في الأرض المقدسة وسقوا نبتتهم الخبيثة فيها، وظنوا أن ما معهم من الدين هو الحق، لأنه يتوافق مع نبوءات مدَّعاة عن عودة اليهود في آخر الزمان إلى الإيمان بعيسى - عليه السلام - عندما ينزل إلى تلك الأرض.

أما المسلمون، فقد أفاقت جماهيرهم المخدرة بالشعارات الثورية، على وقع كارثة مروعة، قادهم إليها من رفعوا كل الرايات إلا راية الإسلام، فأيقنوا أن بعدهم أو إبعادهم عن الدين كان سبباً أساسياً في تمكن أعدائهم منهم على ذلك الوجه المخزي.

لقد ظلت تلك المشاعر الدينية تتعاظم في الشرائح التحتية من المجتمعات العربية القريبة من الصراع، وفي مجتمعات اليهود أنفسهم، وفي بعض مجتمعات النصارى، وظهرت آثارها على شكل جماعات ومنظمات سرية وعلنية، دون أن يظهر أثر واضح على مستوى سياسات القمة، ولكن المشاعر الدينية تفاعلت بشكل أكثر لدى الجماعات الدينية اليهودية والنصرانية في السنوات الأخيرة حتى تحولت إلى زخم دافع يؤثر في التوجهات ويريد أن يتحكم في السياسات، فتنامى المد الديني في دولة اليهود حتى أصبح ظاهرة يصعب تجاهلها، وأصبح يهدد النظم العلمانية التي يحرص ساسة اليهود على الظهور بها، وفي كثير من دول النصارى - خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية - أصبحت التكتلات الدينية النصرانية عاملاً حاسماً في إبراز الزعامات وصناعة

القرارات. أما على الجانب الآخر؛ فلا زلنا نرى التوجهات الدينية في أكثر البلاد الإسلامية تقابل بالصد والرد، والتنديد والتشريد وفق سياسات جهولة ترفض أن يكون للدين أي وجود مؤثر في بلاد المسلمين. إنه وتحت شعارات عديدة عنيدة مثل (تجفيف المنابع - المواجهة الشاملة - الإجهاض المبكر - إلخ . . .)؛ تجري على قدم وساق عملية قتل إرادة الأمة في العودة إلى الدين لتمارس حقها، بل واجبها في الريادة والشهادة على العالمين. ولكن إرادة الله التي تحكم كل الإرادات، تأبى إلا أن يكون للحق صوت، وللإسلام جولة، ولهذا رأينا الصحوة الإسلامية المعاصرة تقوى عوداً وترتفع قامة رغم التحديات والمؤامرات، وإن كان قدر الابتلاء وسنة التمحيص تلاحق أفرادها وجماعاتها، لتصفي صفوفهم وتنقي جوهرهم وتنفي بكيرها الخبث عن معادنهم﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

لقد كانت النقلة إلى الدين منذ ثلاثة عقود، ناتجة عن المنعطف الصعب والصدمة الشعورية لدينا ولدى أعدائنا على حد سواء، فبينما فتنتهم الانتصارات فقد نبهتنا الانكسارات، وهكذا تحدث التحولات في مجرى حياة الأمم عندما تلقى الأحجار في مائها الراكد.

وإنني أتصور أن هناك نقلة أخرى كبيرة - بعد النقلة التي أحدثتها حرب الأيام الستة، سوف تحدث تحولاً أعمق وأوسع في المشاعر الدينية عند أصحاب الديانات الثلاث وربما غيرهم، وتلك النقلة المتوقعة سيكون موضوعها ونقطة انطلاقها مع حلول عام ٢٠٠٠ وبدايات القرن الحادي والعشرين للميلاد. ذلك أن عام ألفين سيفصل بين قرنين أو قل بين عصرين، عصر كان يمثل مرحلة المخاض، وعصر تتطلع فيه الأمم إلى الميلاد، فاليهود يرون في العصر القادم عصر العلو الكبير والسيطرة الكاملة والعودة الجماعية لأرض الميعاد، والنصارى يرون فيه عصر الخلاص العالمي، والتعميد الأممي الذي سيعود بعودة المسيح إلى الأرض.

أما المسلمون فالمتوقع أن تتحرك حميتهم الدينية الجماعية مرة أخرىٰ عندما يسمعون دق طبول الحرب علىٰ أبوابهم تخالطها أبواق اليهود وأجراس النصارىٰ فعندها . . وعندها فقط ـ والله أعلم ـ سيجتمعون حول صيحات الأذان، وسيفهمون رنات التكبير ويفقهون كلمات الشهادة .

إن حديث (التوقع) هذا تدعمه شهادات الواقع، فالوقائع التاريخية والمعاصرة تشير بأسهمها كلها إلىٰ أن روح الدين تدب رويداً رويداً في أجساد الأمم بالحق أو بالباطل عندما توشك الحضارات علىٰ التصادم، والتصادم قادم ـ لا بشهادة المفكرين والفلاسفة فحسب ـ بل بشهادة السنن الماضية والنواميس الحاكمة ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [**البقرة** : ٢٥١] . والأرض تفسد إذا ظل الباطل فيها متفرداً متمرداً، وتفسد إذا بقي الحق فيها مجرداً مطارداً، فلا بد أن يدفع الله الحق لملاقاة الباطل، وليس بين الحق والباطل معركة إلا في ساحات الديانات وميادين العقائد .

﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ [**الأنبياء** : ١٨] .

إن في العالم الآن ظاهرة عامة بين جماهير كبرىٰ من أصحاب الديانات تتحسب لحلول الألفية الثالثة، وتربط بها أحداثاً وأحاديث في السياسة والاجتماع والاقتصاد والبيئة . . . وربما الحرب والسلام، بعد أن يصبغ كل ذلك بصبغة الدين . فالعجيب أن ذلك الربط مرتبط في معظمه بخلفيات دينية وتصورات عقدية تستلهم النبوءات، وتستمد من النصوص والآيات، لتحاول بها فهم المستقبل أو بالأحرىٰ صنع المستقبل .

ولهذا فمن المتوقع أن تتصاعد صرعات (صناعة المستقبل) عند أولئك القوم الذين أدمنوا الشعور بالنجاح حتىٰ ظنوا أنهم سيغالبون القدر .

وموضوع هذا الكتاب محاولة لرصد بعض مظاهر تلك الصرعات الدينية

(المستقبلية) عند أهل الكتابين، خاصة ما يتعلق منها بالمستقبل القريب جداً الدالف مع الألفية في سنواتها الأولىٰ.

فعام ٢٠٠٠م أصبح مرضاً أو عرضاً لمرض أشبه بالحمَّىٰ التي تشتد حراراتها علىٰ المريض فيهذي في اليقظة هذيان النائم، ولكن أهل الكتاب رغم هذيانهم ليسوا نياماً، بل هم في غاية اليقظة لتحقيق قمة الهذيان، وقمة الهذيان أن يقال: إنهم علىٰ الحق والمسلمين علىٰ الباطل! وقمة الهذيان أن يقال: إن خلاص البشرية سيكون علىٰ يدهم أو يد طائفة منهم، وقمة الهذيان أن يقال: إن علوهم وتكبرهم وتجبرهم دليل علىٰ أن الحق معهم، وقمة الهذيان أن يسمح لدينهم الباطل أن يعود ويقود، بينما يحجر علىٰ الدين الحق أن ينهض ويصعد.

إننا مقبلون علىٰ مواجهة حتمية معهم، لكشف الزيغ الذي يدعونه والزيف الذي ينشرونه، والسنوات القليلة القادمة، ربما تشهد بدايات الصدام العقائدي الكبير معهم، والحق أبلج ودين الله غلاب ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [**المجادلة**: ٢١].

إن للصدام القادم زماناً ومكاناً، أما الزمان فهم يدعون أن الدخول الفعلي فيه سيكون مع بدايات القرن الحادي والعشرين للميلاد.

وأما المكان، فدعواهم ودعوانا، وإيمانهم وإيماننا واعتقادهم واعتقادنا أنه سيكون في الأرض الوسط والبقعة المباركة والصعيد المقدس علىٰ أرض الشام وما حولها من بقاع في مصر والعراق والحجاز، تلك الأراضي التي أسموها قديماً (أرض الميعاد) واصطلحوا علىٰ تسميتها حديثاً بـ (إسرائيل الكبرىٰ).

فعلىٰ تلك الأرض الموعودة سيكون الموعد، وسيكون اللقاء الحتمي والصدام الكبير، حيث ستشهد تلك الأراضي الواقعة بين النيل والفرات أعظم الملاحم وأكبر الأحداث والتحولات في الزمان الأخير، كما شهدت أعظم الملاحم وأكبر الأحداث والتحولات في الزمان القديم، فأرض العراق التي ولد فيها إبراهيم ـ

عليه السلام ـ وأرض الشام التي بعث فيها عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وأرض مصر التي عاش فيها موسىٰ ـ عليه السلام ـ وأرض الحجاز التي تشرفت بمبعث محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كلها ستشهد أحداثاً عظاماً وأموراً جساماً كما دلت علىٰ ذلك الأخبار الصحاح، ولهذا فلا عجب أن تظل منطقة (الشرق الأوسط) هي البقعة الملتهبة طوال قرن منصرم، وكأنها تهيأ للاشتعال في القرن الذي يليه.

إن مع اليهود نبوءات، ومع النصارىٰ نبوءات، وعند المسلمين أصدق النبوءات بأن أرض الشام والحجاز وما حولهما سوف تكون حلبة الصراع الأخير بين الأمم، وإن النور الذي انبلج فجره في أرض الحجاز مع بعث خير البشر محمد ﷺ سوف يسطع مرة أخرىٰ في الأرض المقدسة مع عودة أخيه والمبشر به والحاكم بدينه عند عودته ـ وهو عيسىٰ عليه السلام ـ.

فالنور ذاته الذي شع من مكة في الزمان الأول للإسلام، سيشع مرة أخرىٰ من بيت المقدس في الزمان الأخير للإسلام، لأن بين النورين طريق قد شُق بالإسراء، فمحطته الأولىٰ ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...** ﴾ [**العلق**: ١] ومحطته الأخيرة ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ...** ﴾ [**الإسراء**: ١].

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «دل الكتاب والسنة وما روي عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ» مع ما عُلم بالحس والعقل، أن الخلق والأمر ابتدءا من مكة أم القرىٰ، فهي أم الخلق، وفيها ابتدأت الرسالة المحمدية، التي طبق نورها الأرض، وهي التي جعلها الله قياماً للناس، إليها يصلون ويحجون ويقوم بها ـ ما شاء الله ـ من مصالح دينهم ودنياهم، فكان الإسلام في الزمان الأول ظهوره بالحجاز أعظم، ودلت الدلائل المذكورة أن ملك النبوة بالشام والحشر إليها، فإلىٰ بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان أظهر بالشام، وكما أن مكة أفضل من بيت المقدس، فأول الأمة خير من آخرها، كما أنه في آخر الزمان يعود الأمر إلىٰ الشام كما أسري بالنبي ﷺ من

المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ»[(١)].

وعلىٰ شكل قريب من اعتقاد المسلمين في تمكين أهل الحق في تلك الأرض قبل قيام الساعة، توجد اعتقادات متشابهة عند اليهود والنصارىٰ تخص كلاً منهم تربط بين الأرض والشعب والزمن هناك.

فاليهود والنصارىٰ يعتقدون أن الأرض المقدسة والشعب (المقدس) والزمن المقدس قد أوشكوا جميعاً علىٰ الالتحام في أرض (الميعاد) التي تسمىٰ أيضاً أرض (المَعَاد)، أي الزمن الأخير الذي سيشهد الأحداث الأخيرة، فكلا الأمتين تعتقدان أن الفصول الكبرىٰ في ملحمة (نهاية التاريخ) ستكون علىٰ هذه الأرض، أرض المَعَاد أو الميعاد أو.. (إسرائيل الكبرىٰ) كما يسمونها.

وهذا ما يجعل من استقصاء العقائد والأفكار والمخططات المتعلقة بالزمن الأخير ـ الذي يرجحون أنه في (الألفية الثالثة) ـ أمراً في غاية الأهمية، لمن أراد أن يستوعب خلفيات وتشعبات أكبر قضايا العصر، المسماة (قضية الشرق الأوسط).

الرياض في غرة ربيع الآخر ١٤٢٠هـ

الموافق ١٣ يوليو ١٩٩٩م

عبدالعزيز بن مصطفى كامل

محاضر الثقافة الإسلامية بكلية التربية

جامعة الملك سعود بالرياض

وباحث الدكتوراة

بكلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

---

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ج٢٧، ص ٤٣ ـ ٤٤.